الزوايا والسلطة خلال العهد العثماني
مدينة الجزائر نموذجا

د/ ياسين بودريعة

جامعة البويرة

الملخص :

تعتبر الزوايا أحد المؤسسات الاجتماعية، الدينية، و الثقافية بمدينة الجزائر فقد لعبت دورا في هاته النواحي بالمدينة ويعود هذا الدور بالأساس إلى الوفرة المالية التي حصلت عليها خاصة من خلال عملية الوقف فقد أصبحت بمثابة مؤسسة متكاملة ساعدت الحكم العثماني في توفير الملجأ للفقراء و الصدقة عليهم و إطعامهم بالإضافة إلى النشاطات المتعلقة بالجانب التعليمي و الإحتفال بالمواسم الدينية و غيرها، ويبدو أن الدور الذي لعبته الزوايا في مجتمع مدينة الجزائر جعل من الحكام العثمانيين يستغلونها من أجل التقرب من الجزائريين حيث قاموا بتأسيس بعضها و تأسيس الأوقاف عليها و المفارقة أنهم جعلوا لها سلطة روحية تمثلت في عدم ملاحقة من احتمى بها من المجرمين و غيرهم.

Abstract :

The "zaouia" represents one of the social, religious and cultural establishments in Algiers city, it played an important role in the areas of this latter. This role goes essentially to material wealth obtained especially from the activity of "el wakf", thereby it became a perfect establishment helping the Ottoman government to respond to the food and accommodation needs of the poor. Besides education, religious feasts celebrations and other activities, it seems that the role that "Zaouia" played in the society of Algiers city made the Ottoman governors exploit it in order to get closer to Algerians by establishing "el wakf", and the ultimate is that they gave it spiritual sovereignty represented by non-prosecution of criminal refugees and others.

Résumé

La "zaouia" représente l'un des établissements sociaux, religieux et culturels les plus prestigieux de la ville d'Alger,, elles ont joué un rôle dans ces domaines de la ville, ce rôle revient aux

richesses matérielles dûs surtout a l'action d' "el wakf", de ce fait elle est devenue un parfait établissement aidant le gouvernement ottoman a subvenir aux besoins des pauvres en nourriture et hébergement, en plus de l'enseignement et la célébration des faites religieuses et autre, et il parait que le rôle que les zaouïa ont joué dans la société de la ville d'Alger a fait que les gouverneurs ottomans l'ont exploité pour se rapprocher des algériens en construisant ces zaouïas et en constituant les wakfs dessu, et le comble c'est qu'on lui a attribué une souveraineté spirituelle représenté par le non poursuite des criminels et autres qui s'y refuge.

مقدمـــة:

ما فتئت الكتابات التاريخية الجزائرية تولي اهتماما للتاريخ العثماني بالجزائر و قد كان لموضوع العلاقة بين السلطة و الرعية بالجزائر خلال تلك الحقبة يشكل مادة دسمة لهاته الكتابات بما أنّ السلطة من حيث التركيبة الإثنية يعتبر عنصرا أجنبيا وقتئذ فهي من العثمانيين-الأتراك خاصة- باعتبار أنّ الجزائر أصبحت تابعة للخلافة العثمانية بينما تشكلت الرعية من العناصر الجزائرية التي كانت في أغلبها تعيش في الجزائر منذ القدم.

و الغريب أن الحكم العثماني ظل في رعايته للدولة الجزائرية يعتمد على العناصر العثمانية-حتى لا نقول الأجنبية-طيلة فترة تواجده بالجزائر و التي امتدت لأكثر من ثلاث قرون والأغرب أن نهاية الحكم العثماني كانت على يد عنصر آخر تمثل في الدولة الفرنسية والتي يبدو أنها استغلت تلك العلاقة-المتوترة حسب بعض المؤرخين- بدليل ذلك البيان الذي قام بتوزيعه قائد الحملة الفرنسية من أجل تحييد الجزائريين في معركته ضد"الحكم العثماني".

و الملاحظ في تلك العلاقة أنه رغم الإقصاء الذي تعرض له الجزائريون من مختلف الوظائف السامية و على رأسها قيادة البلاد إلا أنه لم تسجل في المصادر المحلية إعتراض كبير حول هذه الوضعية اللهم إلا بعض الثورات هنا و هناك و التي لم تكن أهدافها الرئيسية إسترجاع هذا الحق،ذلك أنّ العثمانيين كان لهم الفضل في تحرير المدن الساحلية الجزائرية من براثن الإمبراطورية الإسبانية.

على هذا الأساس أردنا معالجة موضوع العلاقة بين الراعي و الراعية من منظور علاقة الحكم العثماني بالجزائر مع زوايا مدينة الجزائر كون الزواية شكلت مؤسسة اجتماعية استقطبت فعاليات مجتمع المدينة من علماء و أسر مرموقة وأثرياء وغيرهم ضف إلى ذلك استقطابها لمجموعة معتبرة من سكان المدينة و ذلك بسبب نشاطاتها دينية والخيرية من إيواء، إطعام، وصدقة على الفقراء.

إن معالجة موضوع العلاقة بين الحكم العثماني و زوايا مدينة الجزائر جعلنا بإزاء إشكالية عويصة تمثلت في أن العثمانيين كانت لهم علاقة متميزة بالزوايا باعتبار أنّ العثمانيين قد تبنوا الطريقة البكداشية وبالمقابل فإن سكان المدينة كانت لهم العلاقة نفسها و بالتالي

فإنه يوجد قاسم مشترك بين الراعي و الرعية و المتمثل تلك العلاقة الجيدة مع الزوايا بصفة عامة ومن هنا يطرح التساؤل هل كان هذا القاسم المشترك دور في المعاملة التي نالتها الزوايا تحديد العلاقة بين الحكام و الزوايا خصوصا و العلاقة بين الحكام و السكان عموما.

1-الزاوية:

هي في الأصل ركن البناء وكانت تطلق في باديْ الأمر على صومعة الراهب المسيحي ثم أطلقت على المسجد الصغير " المصلى" أما في بلاد المغرب فهي المكان المعد لعابري السبيل و كذا إطعام المحتاجين[1] كما كان معناها حوالي القرن الثالث عشر مرادفا للرباط الذي يعيش فيها الولي وسط تلاميذه ومريديه، ومع ذلك فإن الزاوية ليست في جميع الأحوال هي الرباط الذي هو منشأة تخدم غرضا آخر[2].

أما الزاوية في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني فهي تدل على محل تلقى فيه دروس للطلبة الكبار وقد تكون مأوى للطلبة أو العلماء الذين يأتون من مكان بعيد فيجدون فيها المبيت مجانا، و هي أيضا عبارة عن ضريح لعالم أو لرجل صالح[3]. وقد كان بعضها يعتبر مدارس عليا لمواصلة التعليم الذي بدأه الصغار في الكتاتيب أو المدارس القرآنية[4].

الزاوية على العموم هي بناية تحتوي على حجرات ضيقة عبارة عن بيوت لمبيت الطلبة، و العلماء الأجانب، والمشردين فهي مؤسسة متكاملة تحتوي على مرافق من مراحيض، أماكن للوضوء، مصلى، مقبرة للدفن و غيرها و قد وصفها دوفولكس Devoulx بأنها "عبارة عن محلات فقيرة وقصيرة أبعادها غير منظمة[5]، تبيض بالجير وعادة ما تحمل اسم مؤسسها أو اسم الحومة التي تقع فيها، أو اسم الولي الصالح الدفين فيها أو اسم الجماعة التي تنتمي إليها مثل زاوية الأندلس و زاوية الأشراف"[6].

1-طبيعة العلاقة بين الحاكم والزاوية:

المعروف أن العثمانيين من المتأثرين بالطرق الصوفية يظهر ذلك من خلال العلاقة بين الجيش الإنكشاري و الطريقة البكتاشية فقد قام السلطان أورخان(1326-1362) بعرض أول فرقة من الجيش الإنكشاري على شيخ الطريقة من أجل مباركتها والمفارقة أن شيخ هذه الطريقة هو أول من أطلق اسم يني جيري أو تشري على هذا الجيش[7]. ويبدو أنّ هذا التأثر امتد إلى الجزائر كونها أصبحت تابعة لها ابتداء من 1519م[8].

و يرى العديد من المؤرخين أن السياسة العثمانية تقوم على حكم البلدان التي أصبحت تابعة لهم من منطلق ترك شؤون المجتمع على حاله أي أنها تقوم على احترام الفئات المؤثرة في تلك المجتمعات فتعمل على تقريبهم منها أو على الأقل تحييدهم و في الجزائر الأولياء والأشراف كانوا من بين الفئات المؤثرة هذا ما جعل الحكام العثمانيين يحاولون التقرب منهم و العمل على نيل رضاهم.

وفي السياق نفسه فإن العثمانيون قد لاحظوا مدى التأثير الكبير للأولياء في الجزائر حيث صور لنا حمدان بن عثمان خوجة ذلك بقوله "...هكذا نشأت أيالة الجزائر وشرح الأهالي إلى هذا العاهل طبائع الشعب البربري، وبينوا له نقطة الضعف فيه أي نصحوه أن يمنح المرابطين ثقة مطلقة لأن ذلك يمنع الجميع من أن يقفوا موقفا معارضا..."، إلى أن يقول: "...ومن ذلك الحين لم يكتف الأتراك بأن فرضوا على أنفسهم احترام هؤلاء المرابطين و إنما صاروا يقدمون لهم أكبر الامتيازات، وأثمنها، وصارت أماكن سكناهم وأضرحتهم بعد الموت مقدسة، كما أنّ القانون لا يمس كل من لجأ إليها..."[9]،

2-إنعكاس هذه العلاقة على نموالزو ايا:

2-1-إنعكاس غير مباشر:

انعكست العلاقة بين الحكام العثمانيين بالجزائر و الأولياء على ظهور عدد معتبر من الزوايا بمدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية، حيث أن وفاة المرابط أو الولي الصالح يؤدي إلى بناء زاوية باسمه لتخليد ذكراه والملاحظ أن عددا معتبرا من الأولياء توفوا خلال

الفترة العثمانية وقد أدى ذلك إلى تأسيس زوايا لهم من طرف مريديهم لتخليد ذكراهم، و الغريب أن أغلب الزوايا المعروفة بمدينة الجزائر و التي كان لها تأثيرا مباشرا في الحياة الاجتماعية بالمدينة يعود تأسيسها إلى العهد العثماني.

ومن بين هاته الزويا نذكر محمد الشريف الزهّار المتوفى سنة 948هـ/1542م وزاويته تأسست بعد وفاته على يد حفيده[10]، وزاوية والي داده المتوفى سنة 961هـ/1554م، وزاوية عبد الرحمن بوقدور المتوفى سنة 988هـ/1581م، زاوية سيدي منصور المتوفى سنة 1054هـ/1644م، زاوية سيدي بن علي المتوفى حوالي 1169هـ/1755م، زاوية محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة 1208هـ/1793م وغيرهم[11].

يعتبر ظهور العديد من الزوايا خلال فترة التواجد العثماني بالجزائر إسها ما غير مباشرا من طرف السلطة خاصة أنّ العديد منها كان لها تأثيرا كبيرا على الحياة الاجتماعية، الثقافية، و حتى الاقتصادية في مجتمع مدينة الجزائر وقد امتد تأثير العديد منها إلى يومنا هذا.

2-2-إنعكاس مباشر:

لعب العثمانيون دورا مباشرا في زيادة ظاهرة الزوايا بمختلف أنواعها بمدينة الجزائر يظهر ذلك من خلال مساهمة الحكام أنفسهم في تأسيس بعضها، فالداي محمد بكداش قام بتأسيس زاوية خاصة بفئة الأشراف عرفت بزاوية الشرفة، سنة 1121هـ/1709م، بالموقع المسمى سوق الجمعة و قام الداي بتعين الوكيل على الزاوية وهو أبو عبد الله سيدي محمد بن سيدي الحاج محمد بن علي بن سعيد الشريف الحسني[12]، وقد كان من بين مهامها هو الاعتناء بفقراء الأشراف و كذا توفير المأوى للعزاب منهم وكذا إشرافها على منح النسب الشريف وغيرها.

ولم يقتصر تأسيس الزوايا على الحكام فقط و إنما امتد إلى بعض الموظفين السامين بالإدارة الجزائرية و منهم محمد خوجة دفتر دار بدار الإمارة الذي قام بتأسيس زاوية كجاوة و أوقف عليها العديد من العقارات و هذا عام 1786 م[13] و فيما يخص الزوايا التي لا تضم ضريحا فقد تأسس العديد منها في الفترة قيد الدراسة، فزاوية الجامع الكبير

أسست سنة 1039هـ/1629م ، وتأسست زاوية الأندلس سنة 1033هـ/1624م وزاوية القشاش سنة 1069هـ/1659م.

وقد امتدت مساهمة الحكام إلى صيانة الزوايا منها مساهمة الداي عبدي باشا[14] في صيانة زاوية عبد الرحمن الثعالبي و هذا عام 1730م، وقد تم تخليد هذه العملية في أبيات شعرية تم حفظها على أحد أسوار الزاوية و قد جاءت على هذا النحو:

الحمد لله و الصلاة والسلام على رسول الله

كمل البناء بحمد رب فاتح بمحرم يسمو بحس واضح

سنة اثنتين و أربعين تعقب ماية و ألفا أسرعت كالجامح

في مدة الأمضا الأسيد المرتضى عبده وقاه الله كل طوايع[15]

3-الواقع العملي لهذه العلاقة:

3-1-تأسيس الأوقاف:

لعبت مؤسسة الوقف دورا كبيرا في تأمين موارد مالية للزوايا، فهو يكاد يشكل المصدر المالي الوحيد لها و الذي ساعدها في دفع أجور المستخدمين فيها و كذا القيام بنشاطاتها الاجتماعية خاصة، من إطعام وصدقة و توفير المبيت و غيرها، وكذا الحفاظ عليها من الإندثار و ذلك بصيانتها، كطلائها بالجير في بعض المناسبات بالإضافة إلى الترميم عندما تتعرض أجزاء منها للسقوط[16].

وقد أسهم العثمانيون بالجزائر حكاما و موظفين في تأسيس العديد من الأوقاف على هذه الزوايا و في هذا الصدد نسجل الوقفية التي قام بتأسيسها الداي أحمد(1805-1808)[17] لصالح زاوية عبد الرحمن الثعالبي و تمثلت في مخيزن وحانوت عام 1222هـ/1807م وقد جاءت صيغة الحبس على هذا النحو "حبّس المعظم أحمد باشا بالجزائر جميع جلسة الحانوت مع جميع جلسة المخيزن الراكبة عليه الكاينة بناحية باب عزون المسامتة لزنقة الصرّاف قرب الخراطين ومجاورة لحانوت الحفاف، على خمسة

عشر شخصا يقرؤون في كل ليلة الجمعة ختمة من كلام الله داخل قبة ضريح الشيخ سيدي عبد الرحمن ويكون الوكيل المتولي أمور القبة كواحد منهم و المتولي تفرقته على يده..."[18]

و الملاحظ أنّ الوقف لصالح الزوايا لم يقتصر على الحكام فقط بل امتد إلى العديد من الموظفين السامين سواء من المؤسسة العسكرية أو من الإدارة المركزية وقد ارتأينا نقل بعض من هذه الوقفيات باعتبارهما مؤسستين من مؤسسات الحكم العثماني في الجزائر ففيما يخص المؤسسة العسكرية نسجل أنّ السيد علي بن الحاج حسن التركي الناظر على مصالح العسكر قام بتحبيس ثلاث حوانيت على زاوية عبد الرحمن الثعالبي سنة 1082هـ/1672 م وقد جاءت صيغة العقد على هذا النحو"....أشهد المبتاع المذكور شهيديه على نفسه أنه حبس على ضريح القطب الرّباني الشيخ البركة أبي زيد سيدي عبد الرحمن الثعالبي نفعنا الله به و برّد ضريحه جميع الحوانيت الثلاث التي أقام بناءها بالقطعة المذكورة...."[19].

و فيما يخص المؤسسة الإدارية نسجل أنّ علي بن حسن التركي الناظر على المواريث المخزنية[20] قام بتأسيس حبس تمثل في جنة على زاوية يحي الطيار وهذا عام 1797 م، وقد جاءت صيغة الحبس على هذا النحو"...أشهد الآن السيد الحاج الأمين الناظر المذكور شهيديه على نفسه الكريمة أنه حبس ووقف لله تعالى بنية سنية على أسس التقوى والإخلاص مبينة جميع الجنة المذكورة على ضريح سيدي يحي الطيار المذكور ينتفع بغلتها وسكناها وكيل ضريح الشيخ المذكور...."[21].

انتشر الوقف على هذه الزوايا خلال العهد الأول للحكم العثماني منذ أواخر القرن 16، وحتى مستهل القرن 19 والتي اتصفت أساسا بازدياد نفوذ الطرق و الزوايا وتعمق الروح الدينية لدى السكان[22]، أدى هذا إلى ظهور ما أصبح يعرف بالمؤسسات الخيرية في مجتمع مدينة الجزائر ومنها الزوايا التي أصبحت بمثابة مؤسسات خيرية[23]. و تعبر أوقاف الحكام العثمانيين بالجزائر عليها عن تلك العلاقة الروحية مع أحد المؤسسات الدينية والاجتماعية الخاصة بالرعية.

2-3-مشاركة البركة من خلال الدفن في الزوايا:

تعبر العلاقة التي جمعت العثمانيين مع زوايا مدينة الجزائر عن مدى ارتباط الحكام مع أحد المؤسسات "الروحية" الخاصة بسكان المدينة يظهر ذلك من خلال حرصهم على أن يكون آخر عهد لهم بالدنيا بأحد زوايا الأولياء خاصة منهم المشهورون من مثل عبد الرحمن الثعالبي هذا الأخير نال شهرة وسعت الأفاق، فقد تم دفن الداي علي باشا[24] في زاوية عبد الرحمن الثعالبي بأمر من خليفته الداي حسين باشا[25]، وحاليا تضم زاوية عبد الرحمن الثعالبي قبور عمر باشا، مصطفى باشا، أحمد داي وحسن باشا[26].

وقد امتد الحرص على الدفن بجوار أحد الأولياء إلى باقي الموظفين الكبار بالدولة على هذا الأساس تفيدنا وثائق المحاكم الشرعية بمعلومات مثيرة حول هاته العملية خاصة أن الأمر تعدى إلى شراء قبور بأموال معتبرة -نظرا لأن المساحة داخل الزاوية محدودة والطلبات كثيرة- فالسيد أحمد العطار قام بشراء قبر قبل وفاته وقد جاء ذلك في وثيقة تصفية إرثه على هذا النحو "... توفي السيد أحمد العطار السكاكري ابن الحاج محمد العمراني نسبا عن زوجه الزهرا بنت الحاج[كذا] ووصى بثلث مخلفاته[كذا] يصرف منه في مئونة تجهيزه من كفن ودفن وصدقات و ختمات... وشراء قبر بضريح الشيخ البركة محمد بن عبد الرحمن الكاين بالحامة نفعنا الله ببركاته و بركة أمثاله أمين..."[27]

و في وثيقة أخرى نجد أنّ السيد محمد بولكباشي ابن مصطفى أوقف "...جميع العلوي الذي بسقيفة الدار المذكورة الراكب على إسطبلها أولا على نفسه وبعد وفاته يخرج شطر غلته في كل سنة لمن يقرأ حزبين اثنين من القرآن كل صبيحة ختمة في كل شهر على قبره بداخل القبة المبنية على ضريح الشيخ سيدي الجيلاني..."[28] هذا يدل على أنّ السيد محمد بولكباشي كان قد أمّن قبرا داخل قبة عبد القادر الجيلاني[29] بمدينة الجزائر.

إنّ حرص الحكام العثمانيون على جعل قبورهم بأحد زوايا مدينة الجزائر يوضح بما لا شك فيه عن مدى تأثرهم بمعتقدات السكان أو الرعية فيما يخص هذه المسألة فالدفن قرب الولي يوفر له الحماية في الآخرة، فقد وردت كتابة في إحدى القبور الموجودة في زاوية عبد الرحمن الثعالبي تقول " أنا في حماك وحمى القرآن "[30].

بالإضافة إلى مشاركة بركة الولي هذا الشأن يقول هاينريش فون مالتسان: "...وكانت تلتف حول زاوية الولي قبور كثيرة من قبور المسلمين كالتفاف الكتاكيت حول الدجاجة فهم يظنون أنهم بهذه الطريقة يشاركون الولي بركته..."[31]

3-3-الاستئناس بالزوايا لجلب النصر:

عرفت مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية العديد من الحملات الأوربية عليها وقد كان النصر حليف الجزائريين في كثير من الأحيان حتى أصبحت تسمى المحروسة والمحمية بالله تعالى و في الحقيقة فإن إطلاق هاته التسميات إنما جاء نتيجة انتشار الأفكار الصوفية التي ربطت انتصارات الجزائريين بالأولياء فكان كلما انتصر الجزائريون في معركة من المعارك ضد الهجمات الأوروبية إلاّ و ظهرت خرافة تمجد إحدى الشخصيات و من الأمثلة خرافة بوقدور الذي قام بتهييج البحر عند حملة شارلكان وخرافة أبي التقي(سيدي بتقة) وغيرها[32].

ويبدو أن الحكام العثمانيون بالجزائر قد تأثروا بهاته الخرافات المنسوجة حول أولياء المدينة مما جعلهم يستحدثون عادات تؤكد هذا التأثر و هو في الوقت نفسه دليل على ارتباط هؤلاء الحكام بأولياء المدينة و هذا ما جعلهم يتقربون من السكان كونهم يتشاركون في احترام الأولياء. ومن بين العادات المستحدثة خلال الفترة العثمانية و التي تعبر عن مدى هذا الارتباط بالجزائريين أن الرياس عندما يركبون إلى البحر يقومون بتوديع الداي وبعد الخروج يذهبون لزيارة زاوية الولي عبد الرحمن الثعالبي ثم زاوية علي العباسي وعندئذ يركبون سفنهم من أجل الإبحار[33].

وبعد خروجهم إلى البحر يطلقون ثلاث طلقات مدفع واحدة لتحية الداي، و البقية لتحية الزوايا خاصة منها زاوية عبد الرحمن الثعالبي باعتبار صاحبها حامي المدينة[34]، بالإضافة إلى زاوية سيدي فرج التي يقومون بتحيتها بعدما يتجاوزون الميناء باتجاه غرب مدينة الجزائر، كما يحيون سيدي بتقة، سيدي محمد الشريف، سيدي يعقوب، سيدي بوقدور ووالي داده[35].

2-2-سلطة الزاوية الروحية :

عبرت شدري عن العلاقة بين الزوايا و السكان بالسلطة الروحية كونها نالت حظوة كبيرة لدى كل السكان الجزائريين[36] لدرجة أنه كان يمنع إخراج كل من احتمى بها ولو كان مجرما ويوضح حمدان خوجة ذلك بقوله"... مقتضى ديننا و سياستنا احترام الأولياء واحترام تربتهم، ولو كان عليه قصاص شرعي، لا نخرجه من التربة بل نترصد خروجه بنفسه احتراما لذلك الولي، و تعظيما لمن أطاع الله فهي بمنزلة الجوامع في الاحترام واشتراك الناس في زيارتها و الاحتماء بها..."[37].

والملاحظ أنّ الحكام العثمانيون بالجزائر احترموا ما كان يؤمن به السكان لذا نجدهم أنهم جعلوا للزوايا هيبة وحرمة فلا تجرأ السلطات الأمنية على اقتحامها في حالة لجوء شخص ما إليها حتى ولو كان هذا شخصا قاتلا لأبيه[38]، فنجد الفارون من الملاحقات يلجئون إلى الزوايا وهم يصرخون " شرع الله" فإذا دخلوا الزاوية نجوا من الملاحقة[39].

ومن المفارقات فإن الحكام أنفسهم قد استغلوا هذه الحرمة عند وقوعهم في مأزق فالداي مصطفى باشا حاول الهرب إلى زاوية والي دادة عندما ثار عليه الجند عام 1805م غير أنه وجدها مغلقة لأنّ الموظفين بالزاوية لما سمعوا بهذه الثورة قاموا بإغلاق باب الزاوية مما جعله يفوت فرصة النجاة فتم قتله[40]، و كان البايات من بين اللذين يلجأون للزوايا في حالة غضب الداي عليهم حيث نسجل في هذا الشأن أنّ باي التيطري "مصطفى الوزناجي" لما غضب عليه الداي حسن باشا سنة 1792م التجأ إلى زاوية أحد الأولياء فنجا من الموت و كان مصيره العزل من منصبه[41].

و نسجل أنّ الحاج السعدي المزوار ممن كتب لهم النجاة بسبب السلطة الروحية للزوايا فقد غضب عليه الداي حسين في إحدى المرات مما اضطره إلى الهرب والاحتماء بزاوية عبد الرحمن الثعالبي فنجا من العقاب ونتيجة لهذا فإن الحاج السعدي قام بعتق جميع عبيده وقد وقعت هذه الحادثة في نوفمبر 1829م[42].أما الرايس حميدو فبعد فشله في إحدى الغزوات البحرية أين غرقت إحدى سفنه فهرب إلى مدينة قسنطينة أين تم قبض عليه و تم إرساله إلى مدينة الجزائر من أجل مقابلة الداي و عند قرب

وصوله حاول الهروب إلى زاوية عبد القادر الجيلاني ليحتمي بها لكنه فشل وقد عفى عنه الداي بعد ذلك[43].

و قد كان العبيد السود من بين الذين كانوا يهربون من أسيادهم إلى الزوايا خاصة منها زاوية عبد الرحمن الثعالبي و هناك يقومون بالشكوى إلى وكيل الزاوية من سوء المعاملة، و كان الوكيل يقوم بالتحقق من سبب الهروب فإن لم يكن مقنعا يقوم يعيدهم إلى أسيادهم[44]. و المفارقة أنّ السلطات تحجز الزاوية و تحاصرها في حالة ما إذا كان اللاجئ إليها شخصا خطيرا كأن يكون مجرما أو ثائرا، ويبقى اللاجئ سجينا في الزواية ولو مات جوعا لكنها لا تجرأ على اقتحامه[45].

خاتمة:

سلطت هذه الدراسة الضوء على طبيعة العلاقة بين الراعي و الرعية من جانب أحد مؤسسات الرعية الدينية والاجتماعية المتمثلة في الزوايا باعتبارها موروث مشترك بين الجانبين حيث يبدو جليا مدى تأثير هذا الموروث على العلاقة الحسنة إذا لم نقل الجيدة بين الجانبين فقد اندمج أصحاب السلطة العثمانيون في المجتمع الجزائري و يمكننا أن نقول أن هذا الاندماج هو أقرب إلى الذوبان على الأقل في جانب علاقتهم بالزوايا.

ومما يعزز هذا القول فإن الزاوية كانت ملجأ لأعمال الخير من الطرفين و خاصة من الحكام باعتبارهم فئة ثرية ومن هذه الأعمال إنشاء بعضها و المساهمة في ترميمها ثم توفير مصدر دخل لها من خلال تأسيس الأوقاف عليها وهذا ما جعلها تقوم بأنشطة متعددة عادت بالنفع على الرعية خاصة فقد كانت ملجأ للمشردين و مطعم للفقراء و مصدر دخل للعاملين بها و غيرها.

و قد مثلت الزاوية سلطة روحية يحترمها الجانبين فقد كانت لها حرمة لدرجة أن لا يمكن محاكمة المجرم الذي يلتجأ إليها، يظهر لنا هذا من خلال ما نقلته لنا المصادر حول بعض الحوادث المتعلقة بهذا الجانب خاصة منها محاولة الداي مصطفى اللجوء إليها هربا من القتل و كذا محاولة الرايس حميدو و غيرهم من الشخصيات.

استمدت هذه السلطة الروحية من خلال شهرة الأولياء المدفونين بها كون أنّ الكثير منهم كانوا مثالا للورع و التقوى كعبد الرحمن الثعالبي و محمد الشريف الزهار ومحمد بن عبد الرحمن بوقبرين و غيرهم وقد اصبحت زواياهم مزارت طلبا للبركة النصر على الأعداء و الشفاء من الأمراض و غيرها حتى أنّ الحكام كانوا يوصون بالدفن في إحدى هاته الزاويا من أجل نيل بركة هؤلاء الأولياء.

الهوامش

[1]- ابن مرزوق محمد التلمساني، المسند الصحيح في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن، دراسة و تحقيق الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1401هـ/1981م، ص413

[2]- موسوعة دائرة المعارف الإسلامية، ج 10، ص 332.

[3] - نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي نشر كلية الآداب، الجزائر 1965، ص 161.

[4]-سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الخامس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1998 ص 110.

[5]-يقصد أنّ شكلها الهندسي غير منتظم.

[6]-DEVOULX, A, Les édifices religieux de l'ancien Alger,in revue africaine,tome 6,année 1898, p 380

[7]-جميلة معاشي، الإنكشارية و المجتمع بباياك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر،السنة الجامعية 2007-2008، ص4.

[8]-رشيدة شدري معمر،العلماء و السلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات(1671-1830)، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2005-2006، ص95.

[9] -حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم و تعريب و تحقيق الدكتور محمد العربي الزبيري،الطبعة الثانية، الشركة الجزائرية للنشر التوزيع، الجزائر،1982، ص 111.

[10]- COLIN. G, Corpus des inscription arabes et turques de l'algerie, paris, 1901,p18.

[11] -حول تاريخ تأسيس الزوايا أنظر:

-ياسين بودريعة، أوقاف الأضرحة و الزوايا بمدينة الجزائر وضواحيها خلال العهد العثماني من خلال المحاكم الشرعية و سجلات بيت المال و البايلك، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة بوزريعة، السنة الجامعية 2006-2007.

[12]-DEVOULX, A.,(Les édifices...)Op.cit,in revue africaine,année1868,p104.

[13]- ياسين بودريعة، الثروة و الفقر بمدينة الجزائر أواخر العهد العثماني(1786-1800 م)دراسة اجتماعية ومقاربة اقتصادية من خلال دفاتر التركات، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر 2، 2016-2017، ص293.

[14]-حكم الداي عبدي باشا في الفترة ما بين 1724و 1732م، في عهده احتل الإسبان مدينة وهران للمرة الثانية، وبسبب ذلك امتنع عن الأكل و الشرب حتى توفي سنة 1732.

15- COLIN. G, op.cit,p101.

[16]-ياسين بودريعة، أوقاف الأضرحة....، ص179.

[17]-حول الداي أحمد أنظر:

-أمير يوسف، أوقاف الدايات بمدينة الجزائر وفحوصها من خلال سجلات المحاكم الشرعية(1081-1246هـ/1671-1830م)،رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر،2009-2010)، ص،ص 92-94

[18]-بيت المال و البايلك، علبة 16، سجل 100، ورقة 49

[19]-عقود المحاكم الشرعية، العلبة رقم132-133، رقم الوثيقة(33). سوف نختصر ذكر هاته العقود على هذا النحو"م.ش.ع(الرقم داخل القوس يمثل رقم الوثيقة في العلبة)"

[20]-الناظر على المواريث المخزنية، ويسمى أيضا الناظر على بيت المال أو بيت المالجي، تقوم هذه الهيئة بتصفية جل تركات الأشخاص المتوفين ممن لم يخلفوا عاصبا، أو الذين طال غيابهم، و دفن الموتى والحرص على صيانة المقابر أنظر:

-DEVOULX, A., Tachrifat, Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, Alger, 1952, p 20

[21]-م.ش.ع3

[22]-مولود قاسم نايت بلقاسم، (الوقف و مكانته في الحياة الاقتصادية و الاجتماعية بالجزائر أواخر العهد العثماني و أوائل الاحتلال الفرنسي)، مجلة الأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، جانفي-فيفري سنة 1981، ص89

[23]-لقد ظهر بمدينة الجزائر ما يعرف بالمؤسسات الخيرية، أو المؤسسات الدينية، من بينها مؤسسة الحرمين الشريفين، الجامع الأعظم، مؤسسة الزوايا والأضرحة و غيرها. للمزيد حول هذه المؤسسات أنظر:

- AUMERAT.,**Le bureau de bienfaisance musulman**, in revue africaine, tome 44.

[24] -الداي علي باشا تولى حكم الجزائر في أكتوبر 1817م و توفي بالطاعون يوم 1 مارس 1818م، من أهم أعماله نقل مقر الحكم من الجنينة إلى القصبة للتخلص من سيطرة اليولداش وقد اختار حاميته من الأهالي و الكراغلة وخلفه الداي حسين آخر دايات الجزائر، أنظر:

-مبارك بن محمد الهلالي الميلي،تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، الجزء الثالث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر 1964،ص266.

[25]-أحمد الشريف الزهّار، مذكرات نقيب الأشراف، تحقيق أحمد توفيق المدني، ط 2 الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر، 1980، ص142.

[26]-بالحميسي مولاي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، منشورات المجلس العلمي للإتحاد الوطني للزوايا الجزائرية ، الجزائر، نوفمبر 2003، ص 24.

[27]-م.ش.ع31 (1)

[28]-م.ش.ع151-152(29).

[29]-عبد القادر الجيلاني ولد بجيلان نحو 1078م وتوفي عن عمر يناهز 91سنة ببغداد، أقيمت في كل البلاد الإسلامية قبة له، و منها في واحدة في مدينة الجزائر التي كانت تعرف بنخلة شهيرة وقد

سقطت هذه النخلة حوالي سنة 1865، أما القبة فقد تم هدمها سنة 1866 لفتح طريق سمي بطريق قسنطينة، كان الناس يأتون إلى هذه القبة و يستغيثون بالشيخ عبد القادر الجيلاني.

[30]- بالحميسي مولاي، مرجع سبق ذكره، ص 25

31- هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، الجزء الأول الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1973.، ص 42.

32 -للمزيد حول هذه الأساطير أنظر:

-بودريعة ياسين، أوقاف الزوايا و الأضرحة....

[33]- الزهّار، أحمد شريف. مصدر سبق ذكره، ص61.

[34]-PARADIS, V, d., Alger au XVIIIè siècle, 2ème édition, Bouslama, Tunis 1981,p42.

35 - كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، 1510-1541، ترجمة جمال حمادنة ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر ص87.

[36]-شدري معمر رشيدة، مرجع سبق ذكره، ص29.

[37]-التميمي عبد الجليل، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، الجزائر، و تونس، وليبيا 1816-1871، الطبعة الثانية، مركز الدراسات و البحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني، زغوان 1985، ص 103.

[38] -حمدان بن عثمان خوجة، مصدر سبق ذكره، ص111.

39- بالحميسي مولاي، مرجع سبق ذكره.ص 40

[40]-أحمد الشريف الزهار، مصدر سبق ذكره، ص 89

[41]- مبارك بن محمد الهلالي الميلي،مرجع سبق ذكره.ص 240 و ص 248.

[42]-DEVOULX, A,(Les édifices...)Op.cit,in revue africaine,année1863,p181.

[43]-ألبير دوفال، مرجع سبق ذكره، ص 23.

44-ROZET, M., Voyage dans la régence d'Alger ou description du pays occupe par l'armée française en Afrique du nord, tome 2, et tome 3, paris,Bertrand, 1833, P129

[45]-DEVOULX, A.,(Les édifices ....).Op.cit,in revue africaine,année1862, p378.

المصادر والمراجع باللغة العربية

-بيت المال و البايلك، علبة 16، سجل 100.

- عقود المحاكم الشرعية، العلبة رقم(132-133)، رقم الوثيقة(33). -م.ش.ع31 (1)، - م.ش.ع151-152(29).

- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الخامس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1998.

- التلمساني ابن مرزوق محمد ، المسند الصحيح في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن، دراسة و تحقيق الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1401هـ/1981م.

- الزهّار أحمد الشريف ، مذكرات نقيب الأشراف، تحقيق أحمد توفيق المدني، ط 2 الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر، 1980.

- بودريعة ياسين ، أوقاف الأضرحة و الزوايا بمدينة الجزائر وضواحيها خلال العهد العثماني من خلال المحاكم الشرعية و سجلات بيت المال و البايلك، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة بوزريعة، السنة الجامعية 2006-2007.

- بودريعة ياسين، الثروة و الفقر بمدينة الجزائر أواخر العهد العثماني(1786-1800 م)دراسة اجتماعية ومقاربة اقتصادية من خلال دفاتر التركات، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر 2، 2016-2017.

- شدري معمر رشيدة ،العلماء و السلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات(1671-1830)، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2005-2006.

-شوفالييه كورين ، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، 1510-1541، ترجمة جمال حمادنة ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر.

- معاشي جميلة ، الإنكشارية و المجتمع ببايلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر،السنة الجامعية 2007-2008.

- موسوعة دائرة المعارف الإسلامية، الجزء العاشر، مركز الشارقة للإبداع الفكري دبي، 1998.

- نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي نشر كلية الآداب، الجزائر 1965.
- هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، الجزء الأول الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1973.
- التميمي عبد الجليل، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، الجزائر، و تونس، وليبيا 1816-1871، الطبعة الثانية، مركز الدراسات و البحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني، زغوان 1985.
- أمير يوسف، أوقاف الدايات بمدينة الجزائر وفحوصها من خلال سجلات المحاكم الشرعية(1081-1246هـ/1671-1830م)،رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2009-2010.
-بالحميسي مولاي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، منشورات المجلس العلمي للإتحاد الوطني للزوايا الجزائرية ، الجزائر، نوفمبر 2003.
- حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم و تعريب و تحقيق الدكتور محمد العربي الزبيري،الطبعة الثانية، الشركة الجزائرية للنشر التوزيع، الجزائر، 1982.
-مبارك بن محمد الهلالي الميلي،تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، الجزء الثالث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر 1964.
-مولود قاسم نايت بلقاسم، (الوقف و مكانته في الحياة الاقتصادية و الاجتماعية بالجزائر أواخر العهد العثماني و أوائل الاحتلال الفرنسي)، مجلة الأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، جانفي-فيفري سنة 1981.

المصادر والمراجع باللغة الفرنسية

-AUMERAT. Le bureau de bienfaisance musulman, in revue africaine, tome 44.

- COLIN. G, Corpus des inscription arabes et turques de l'algerie, paris, 1901.

-DEVOULX, A., Tachrifat, Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, Alger, 1952.

-DEVOULX, A, Les édifices religieux de l'ancien Alger,in revue africaine,tome 6,année 1898.

-PARADIS, V, d., Alger au XVIIIè siècle, 2ème édition, Bouslama, Tunis 1981.

-ROZET, M., Voyage dans la régence d'Alger ou description du pays occupe par l'armée française en Afrique du nord, tome 2, et tome 3, paris,Bertrand, 1833.